مجلة روافد للبحوث و الدراسات / مخبر الجنوب الجزائري للبحث في التاريخ والحضارة الإسلامية
جامعة غرداية / المجلد 08/العدد 01 (2023 م):1-26
E: 2588-1787 / P: 2543 - 3563
https://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/806

تداعي حكم المرابطين ما بين الرواية الموحدية والموضوعية
قراءة في الأسباب والمظاهر والإنعكاسات على الدولة والمجتمع

The collapse of the rule of the Almoravids between the Almohad and objective narrative
A reading of the causes, manifestations, and repercussions on the state and society

د. عدة الشيخ[1]
جامعة حسيبة بن بوعلي الشلف،كلية العلوم الانسانية والاجتماعية،echchikh@gmail.com

تاريخ الإرسال: 26/ 12/ 2022؛ تاريخ القبول:2023/04/26؛ تاريخ النشر:2023/06/25

الملخص:

يتناول هذا البحث بالدراسة والتحليل موضوع تداعي الحكم المرابطي وضعفه، وذلك من وجهة نظر المصادر الموحدية المعروفة بتحاملها الكبير على الدولة المرابطية وحكامها وخاصة فترة الأمير علي بن يوسف بن تاشفين، ومن وجهة نظر المصادر الأخرى المحايدة المتميزة بطرحها الواقعي والموضوعي، وانعكاسات ذلك الضعف والتداعي على أوضاع الدولة والمجتمع المرابطي، من خلال التطرق الى معظم أسباب الضعف وعوامله، والتي من أهمها ضعف القيادة العليا للبلاد بعد وفاة يوسف بن تاشفين وتولي ابنه علي الحكم من بعده، وتعدد الجبهات ضد المرابطين، وكذا الإشارة الى مجالات الضعف وميادينه، والتي من بينها إزدياد نفوذ الفقهاء في الدولة، وانتشار الفساد، وتحلل الأخلاق، ويهدف البحث الى الوقوف على مدى تأثير العصبية والدعوة الدينية في تأسيس الدول وانهيارها، ومن النتائج المتوصل اليها هي أن ضعف حكم المرابطين فتح المجال لظهور دعوة دينية وعصبية أخرى، الدعوة الموحدي بقيادة عبد الله ابن تومرت، الذي عرف كيف يستغل ضعف المرابطين، في نشر دعوته والتأسيس لدولة الموحدين على حساب دولتهم.

الكلمات المفتاحية: المرابطين؛ عبد الله بن ياسين؛ المغرب الإسلامي؛ الموحدين؛ الدولة.

Abstract :

This research deals with the study and analysis of the subject of the collapse of the Almoravid rule and its weakness, from the point of view of the Almohad sources known for their great prejudice against

المؤلف المرسل: عدة الشيخ echchikh@gmail.com

the Almoravid state and its rulers, especially the period of Prince Ali bin Yusuf bin Tashfin, and From the point of view of other neutral sources characterized by their factual and objective presentation, and the repercussions of that weakness and collapse on the conditions of the state and Almoravid society, by addressing most of the causes of weakness and its factors, the most important of which is the weakness of the country's supreme leadership after the death of Yusuf bin Tashfin and the assumption of his son Ali to power from After him, and the multiplicity of fronts against the Almoravids, as well as referring to the areas of weakness and its fields, including the increase in the influence of jurists in the state, the spread of corruption, and the decomposition of morals, and the research aims to stand on the extent of the impact of nervousness and religious call in the establishment of states and their collapse, and the results reached are that the weakness of the rule of the Almoravids opened the way for the emergence of a religious call and other nervousness, the Almohad call led by Abdullah bin Tumart, who knew how to exploit the weakness of the Almoravids, in spreading his call and the establishment of the Almohad state at the expense of their state.

Keywords: Almoravids; Abdullah bin Yasin; lmohaids; Islamic Maghreb; state.

مقدمة:

من الثابت تاريخياً؛ هو أن النواة الأولى لتأسيس دولة المرابطين، قد تشكلت من خلال ذلك التحالف القبلي المقام بين فروع قبيلة صنهاجة الكبرى(جدالة، لمتونة، مسوفة)، إثر إلتفافها حول دعوة الفقيه عبد الله بن ياسين خلال القرن(5هـ/11م)، والذي تمكنت بفضله من أن تنشّأ كيان سياسي قوي وممتد، كان له الأثر البارز في التاريخ الإسلامي ككل. ليكون المرابطون بذلك أول من أقام دولة ذات قوة وإتساع سلطان بالمغرب الإسلامي، على شاكلة الدول المستقلة شرقاً وغرباً عن الأمويين والعباسيين، كالدولة الأموية بالأندلس(138-422هـ/756-1031م)، والدولة الفاطمية بمصر (296-567هـ/909-1171م)، والسلجوقية بأواسط آسيا (429-590هـ/1037-1193م) وغيرها من الدول.

وعلى الرغم مما تحمله المرابطون من عبء وعناء من أجل إرساء قواعد الإسلام السُّنّي الصحيح في البلاد التي إمتد إليها سلطان دولتهم، جراء مواجهتهم للقبائل الصحراوية والمغربية المنحرفة عن دعوتهم، والتصدي للحملة المسيحية على

الأقاليم الإسلامية في الأندلس، وما كلفهم ذلك من جهد ودماء، وبالرغم مما واجههم به الأندلسيون من خيانة؛ فقد ظَلَّ المرابطون صامدين أمام أعدائهم، قائمين بأمر رعاياهم أحسن قيام حتى وفاة آخر أمرائهم تاشفين بن علي سنة(539هـ/1144م) وهو يحارب الموحدين الذين حاصروه وقتلوه في وهران. ليكون هذا الحدث، إيذاناً ببداية النهاية لهذه الدولة التي قدمت الكثير للإسلام والمسلمين. فما هي إذن أهم أسباب وعوامل تداعي وانحلال الحكم المرابطي؟ وفيما تكمن مظاهره ومجالاته؟ وأين يتجلى انعكاس ذلك على الدولة والمجتمع المرابطي؟.

1- تداعي وضعف حكم دولة المرابطين:

1 - 1: الأسباب والعوامل:

تحصر معظم المصادر الموحدية وفي مقدمتها كتاب-المعجب- لصاحبه عبد الواحد المراكشي، وكتاب-نفح الطيب-للمقري التلمساني، وكتاب-الحلل الموشية-في نسخته المنسوبة لإبن الخطيب وغيرها، أسباب تدهور حكم المرابطين والثورة عليهم في: غلظة يوسف بن تاشفين وجهله، ولين علي بن يوسف وعجزه عن القيام بشؤون الدولة، وغلظة جند المرابطين وجفاء مظهرهم، وترامیهم على خيرات الأندلس، وغلبة النِّساء على أمور الدولة، وتسَّلط الفقهاء على مقاليد الأمور، مما تسبب في ضياع أمرهم وذهاب سلطتهم (عبد الواحد المراكشي، 1881: 127).

غير أنه ونظراً لتحامل أصحاب هذة المصادر الكبير على الدولة المرابطية وزعمائها وانجازاتها الكبيرة، وميولاتهم المفضوحة نحو خصومهم الموحدين، فإنه كان من الأصوب والأنصف، الإشارة الى الأسباب الأخرى الحقيقية الكامنة وراء هذا الضعف والتداعي، والتي قد تمايز وتتجاوز ما ذكره أصحاب المصادر السابقة الذكر. وفيما يلي تفصيل لأهم تلك الأسباب:

1-1-1: وفاة الأمير يوسف بن تاشفين وضعف القادة الذين أعقبوه في حكم الدولة:

بدأت ملاحم الضعف تظهر على الحكام المرابطين مباشرةً بعد وفاة الأمير يوسف بن تاشفين، وتولي ابنه الأمير علي حكم البلاد خلفاً له سنة(500هـ/1107م)، مما تسبب في دفع الكثير من أمراء الأقاليم إلى الإستبداد، وقد عبر المراكشي عن تلك الأوضاع بقوله:« وإختلت حال أمير المسلمين رحمة الله بعد الخمس مائة اختلالاً شديداً، فظهرت في بلاده مناكر كثيرة وذلك لإستيلاء أكابر المرابطين على البلاد ودعواهم الإستبداد، وانتهوا في ذلك إلى التصريح فصار كل منهم يصرح بأنه خيرٌ من علي أمير المسلمين وأحق بالأمر منه» (عبد الواحدالمراكشي، 1881: 127).

وربما ساعدهم على ذلك انصراف الأمير علي إلى العبادة والزهد، وقد وصف المراكشي علي بن يوسف بتغافله عن أحوال الرعية وعكوفه على العبادة قائلاً:« قنع باسم إمرة المسلمين وبما رجع إليه من الخراج، وعكَّف على التعبد والتبتل فكان يقوم اللَّيل ويصوم النهار مشتهراً عنه ذلك، وأهمل أمور الرعية غاية الإهمال، فاختَّل لذلك عليه كثيرٌ من بلاد الأندلس وكادت تعود إلى حالها الأول لاسيما منذ أن قامت دعوة ابن تومرت بالسوس» (عبد الواحد المراكشي، 1881: 128).

وهنا تجدر الإشارة، إلى تناقض رواية المراكشي حول علي بن يوسف في قوله:« فجرى على سنن أبيه في إيثار الجهاد وإخافة العدو وحماية البلاد، وكان حسن السيرة جيد الطوِّية، نزيه النفس بعيداً عن الظلم، كان إلى أن يعد في الزهاد والمتبتلين أقرب منه إلى أن يعد في الملوك والمتغلبين، واشتدَّ إيثاره لأهل الفقه والدين؛ وكان لا يقطع أمراً ولا يبت حكومة في صغير من الأمور ولا كبير إلا بمحضر أربعة من الفقهاء» (عبد الواحد المراكشي،1881: 122). وهنا يلاحظ عدم التوافق في كلام المراكشي بين رأيه هذا ورأيه السابق.

وعلى العكس من هذا الإدعاء، فإن معظم الرسائل التي بعث بها الأمير-علي بن يوسف-إلى أمرائه، تبين كيفية معالجته لبعض المسائل بالحكمة والتأني، وبعده عن الغلظة والتهديد بالعقاب إلا في حالة تجاوز الأمور لحدودها، و لم يستثني من ذلك حتى أبناءه. (أنظر التعليق رقم).

ومنها مثلاً تلك الرسالة التي وجهها لإبنه أبي بكر حينما ولاه على قيادة جيوش المرابطين في الأندلس (عبد اللطيف دندش1، 1988: 31) والتي جاء فيها:« وخاطبنا عمالك بالسمع منك والطاعة لك، وأن يطابق كل واحدٍ رأيك ويوافق عملك» (محمود مكي، 1960: 170). والعديد من الرسائل التي وجهها للقضاة والولاة يحثهم فيها على الإلتزام في الإفتاء بمذهب الإمام مالك(□)، والرفق بالرعية وتفقد أحوالهم... وغيرها من الرسائل.

كما دأب الأمير-تاشفين بن علي، على العمل بنفس أوامر أبيه، وسار على نهجه في مراسلة القضاة والولاة وكرَّر أوامر أبيه وجده يوسف إليهم، وكان القصد عند المرابطين من ذلك، هو توخي العدالة والإنصاف بين الرعية عن طريق القضاة والعمال لأنهم أكثر احتكاكاً بالناس لطبيعة عملهم (عبد اللطيف دندش1، 1988: 28-31). وكان مما زاد مركز القيادة ضعفاً، هو ذلك الخلاف الخطير الذي حدث بين إبراهيم بن تاشفين وعمه إسحاق بن علي حول السلطة في البلاد والموحدون يزحفون نحو عاصمتهم، مما أضعف مركز المرابطين وعجل بإنتصار الموحدين عليهم (حسن علي حسن، 1980: 43).

1-1-2: اضطراب أحوال الأندلس وتردي أوضاعها:

عقب وفاة الأمير علي بن يوسف وتولية ابنه تاشفين الحكم سنة (537هـ/1142م)، بدأت أوضاع الأندلس تشهد نوعاً من الإختلال والإضطراب خلافاً للإستقرار الذي عاشته عقب انتصار الزلاقة (479هـ/1086م)، وإخضاع ملوك الطوائف لحكم المرابطين على يد القائد يوسف بن تاشفين، وقد بدأ هذا الوضع في التجلي مباشرةً في فترة الإنتقال القصيرة هذه؛ بحيث لم تكن هناك قيادة موحدة تعمل على تنسيق العمل وتوجيه الأوامر إلى الجند خاصةً والرعية عامة، مما تسبب في عدم احترام تلك الأوامر والعمل بها، والفساد الأكبر كما عبر عنه ابن الخطيب هو:« أنهم-أي الأمراء- كانوا اليوم يصدرون أمراً وغداً ينسخونه بأمر آخر، فيسخر منهم جندهم ورعاياهم» (ابن الخطيب، د. ت: 99).

فقد كانت الأوامر تصل إلى الجند والرعية متناقضة، وساءت العلاقة بين الحاكم والرعية، ونظر الجند والرعية إلى أميرهم نظرة سخرية واحتقار وازدراء (عصام الفقي، 1990: 99)، في الوقت الذي بلغ فيه تنظيم الموحدين وانضباطهم درجةً كبيرة الى الحد حسب ذكر المراكشي دائماً:« لو أمر أحدهم بقتل أبيه أو أخيه أو ابنه لفعل» (عبد الواحدالمراكشي، 1881: 137)، وهو الأمر الذي أفاد منه الموحدون وعجل بسقوط المرابطين، وتسبب في اضطراب الأمور في الأندلس خاصةً بعد استدعاء الأمير تاشفين بن علي إلى المغرب، وسحبه لعدد كبير من قوات المرابطين معه للتصدي لمحاولة الموحدين السيطرة عليه وانتزاعه من المرابطين. (عصام الفقي، 1990: 260).

وقد انتهز النصارى كعادتهم في الأندلس الفرصة، وشرعوا في الإغارة على الأراضي الإسلامية في إسبانيا، وتعددت هزائم المرابطين أمامهم بعد أن توقفت الإمدادات التي كانت تصلهم من المغرب لإنشغالهم بمحاربة الموحدين، وهو الأمر الذي أدى إلى ضعف وتراجع هيبة المرابطين في الأندلس واستهانة أهلها بهم. وفي هذا الصدد يقول ابن الخطيب:« وكان أعظم ما تأيد به عبد المؤمن على المرابطين، قيام أهل الأندلس عليهم كونهم أخلوها من حماتها وأسلحتها» (ابن الخطيب، د.ت : 99). كما يقول ابن القطان مؤرخ الموحدين متغبطاً وشامتاً:« وكل هذا مهد الله به أمر الموحدين أعزهم الله تعالى». (ابن القطان المراكشي، د.ت: 154).

1-1-3: استبداد الكثير الفقهاء والقضاة والعمال وتسلطهم على العامة:

لم يكن تسلط الفقهاء جديداً على المغرب والأندلس؛ إذ أن الفقهاء كانوا يتمتعون بمركز ممتاز في عصري الإمارة والخلافة الأموية، فكان أمراء بني أمية يستشيرونهم في شؤون الدنيا والدين، وكانوا يحتلون أرفع مكان، وبما أن المرابطين كانوا قوماً متمسكين بالدِّين، شديدي الإجلال لرجاله، فإنهم رفعوا الفقهاء إلى أعلى المناصب، فأصبح القضاة منهم في بعض النواحي حكام للأقاليم، وأصبح الفقيه المشاور حاكماً مدنياً إلى جانب القائد المرابطي الذي كان حاكماً عسكرياً. ولما جعل المرابطون تولي منصب القضاة من تخصص رجال الدِّين، فقد استعاد

الفقهاء والقضاة نفوذهم أثناء فترة حكم المرابطين، وعادوا إلى سابق سلطانهم وسطوتهم (عبد اللطيف دندش1، 1988: 25). بل قد ازدادت ثروتهم ونفوذهم، وعوض محاربة البدع والشعوذة ومدعي المهدوية؛ انشغلوا بأمر لا يهم العامة، وهو الخلاف حول كتب الغزالي والحديث عنها، وغيرها من القضايا غير المفيدة، وتركوا الأمور الشركية كالشعوذة والدروشة تنتشر في البلاد، ولم يكونوا إلا نفراً من الطامعين في السلطان والأموال والغنائم، ولم يؤثر عنهم عمل ديني في بلد دخلوه، أو إصلاح قاموا به مجرد السلب والنهب فقط، وتلاشوا من الوجود عند نزول الموحدين (عبد اللطيف دندش1، 1988: 35).

فكل ذلك كان سبباً في ضعف الإدارة المرابطية؛ وفتح المجال للرشوة والثراء، وشجع صغار الموظفين على الإقتداء بهؤلاء العمال، ويلتمس ذلك من رسالة الأمير علي بن يوسف لأحد قضاته، وربما كانت رداً على رسالة للقاضي يشكو إليه تصرف بعض العمال، مما جعله يأمر القاضي بإنهاء أمر أي عاملٍ يثبت عليه أي اتهام، ونصها هو: « وأي عامل من عمال الرعية قامت الشهادة عندك بتعديه، وعلمت صحة استهدافه وتصدِّيه، فإنه أمره إلى صاحب البلد مستعمله ومتوليه». ويطلب من القاضي قبل القيام بهذا الإجراء التحقق من صحة التهمة ومواجهته بالإتهامات والأدلة حتى لا يظلم أيضاً العمال ثم بعدها يعزله، فإذا تحرج من عزله فيجب عليه أن يعجل برفع أمره إلى السلطان نفسه:« وإلا فأخف ذلك إلينا في سائر ما يتوقف لديك من الأمور التي تقصر عنها يدك، وينقطع دون النفوذ فيها غايتك وأمدك لينفذ من عندنا ما يقف منازعك عنده، ويسهل لك كل صعب بعده» (محمود مكي، 1960: 173).

وعلى أية حال؛ فإن هذه الطبقة أو البيوتات الكبيرة منها التي توارثت القضاء عندما أحست بالخطر على مراكزها بانهيار دولة المرابطين، تزعموا مدنهم وأعلنوا الثورة واستقلوا بهذه المدن، وكونوا ما عرف بعصر الطوائف الثاني (عبد اللطيف دندش1، 1988: 276).

1-1-5 : تحالف النصارى بالأندلس وتعاظم قوتهم:

كان لتغير الأوضاع في الممالك النصرانية وتوحد قيادتها، وثبات جبهتها حوالي تسعة وعشرين عاماً متتالية بيد ألفونس الأول ملك (أراغون وقشتالة وليون)الملقب بالمحارب(عبد اللطيف دندش1، 1988: 45-46)، وتفانيه في محاربة المرابطين، وكسره لشوكتهم ، والقضاء على قوتهم في الأندلس، بالرغم من أنه لقي حتفه على أيديهم، وكان مما قام به تلك الغارة الطويلة التي اجتاح فيها الأندلس من الشمال إلى الجنوب ومن الشرق إلى الغرب في مدة سنة وبضعة أشهر (انظر التعليق رقم)، وقوات الأندلس ما بين مرابطية وأندلسية تسير في أثاره أو تحتمي منه بالحصون، ولاشك أن هذه الغارة قد أسقطت من هيبة المرابطين وسلطانهم، وأشعرت الأندلسيين أنه بإمكانهم الوثوب وانتزاع الأمر منهم، واستهانوا بهم وانظموا إلى أعدائهم من النصارى والموحدين بهدف التخلص من حكمهم، وخصوصاً بعد أن اشتَّد الصراع بين المرابطين والموحدين (عصام الفقي، 1990: 161-162).

وحسب ما جاء في كتاب الأندلس في نهاية المرابطين ومستهل الموحدين، فإن النصارى قد جددوا هجماتهم في الأندلس التي امتدت من ليون إلى جبل طارق، ولما رأى الأندلسيون حكامهم المرابطين لا يتحركون لإنقاذهم من هجمات النصارى طردوهم من بلادهم، وعادت الأندلس إلى كما كانت في عهد ملوك الطوائف، ونشأت في الأندلس مدن مستقلة عن بعضها تخضع للنصارى، ويحارب بعضها بعضاً (عبد اللطيف دندش1، 1988: 45-46).

1-1-4: تجمد الفقهاء وتمسكهم بفروع المذهب المالكي وإهمالهم للأصول:

مما أخذ على المرابطين، أنهم بالغوا في الإعتماد على الفقهاء في إدارة شؤون دولتهم، لكون أن هذه الأخيرة، قد قامت من البداية على الأصول الفقهية التي رسمها داعيتهم عبدالله بن ياسين، وسير جل أمرائها على ذلك النهج؛ إلا أن اجتهاد هؤلاء الفقهاء قد تجمد عند كتب الإمام مالك، و لم يعودوا يرجعون إلى الأصول يستنبطون منها الأحكام، واكتفوا بالأحاديث المجموعة عن كتب الفروع المرتبطة بمذهب الإمام مالك، وجعلوها مرجعهم الوحيد، وفي هذا الشأن قال المراكشي:«

فنفقت في ذلك الزمان كتب المذهب وعمل بمقتضاها ونُبذ ما سواها، وكثر ذلك حتى نسي النظر في كتاب الله وحديث رسول الله، وقرر الفقهاء عند أمير المسلمين تقبيح علم الكلام، وكراهة السلف له» (عبد الواحد المراكشي، 1881: 122).

فقد كان الأمير علي بن يوسف، يكتب من الحين إلى الآخر إلى البلاد، بالتشديد في نبذ الخوض في علم الكلام، وتوعد كل من وجد عنده شيء من كتب علم الكلام، حتى أنه أمر بإحراق كتب الإمام أبو حامد الغزالي عندما دخلت إلى المغرب والأندلس من المشرق بإيعاز طبعاً من الفقهاء، وتقدم بالوعيد الشديد بعد سفك الدم ومصادرة المال لمن وجد عنده شيءٌ منها، وقد اشتد في تنفيذ ذلك (عبد الواحد المراكشي، 1881: 122).

وبحسب ذكر الباحثة-دندش- فإنه يجب أخذ هذا القول بحذر؛ لأنه قد وجد نقيض هذا الكلام في نوازل القاضي ابن رشد(مخطوط رقم1072بالمكتبة الأهلية بباريس)، سؤال الأمير علي بن يوسف للقاضي أبي الوليد بن رشد: ما يقول الفقيه أبو الوليد في الشيخ أبي الحسن الأشعري، وأبي الحسن الأسفراني، وأبي بكر الباقلاني، وأبي الوليد الباجي ونظرائهم ممن ينتحل علم الكلام ويتكلم في أصول الديانات، فأجابه ابن رشد:« هم أئمة خير، وممن يجب الإقتداء بهم...». وهذا يدل على أنه كان في هذه المرحلة حركة نشيطة لدراسة علم الكلام والخوض فيه عند ظهور داعية الموحدين المهدي بن تومرت(أنظر التعليق رقم) الذي راح يناقض مذهب المرابطين وينتقده بكل ما أوتي من قوة (عبد اللطيف دندش2، 1988: 133-134).

1-1-6: تنفذ النساء المرابطيات وتدخلهن في توجيه شؤون الحكم:

وهي تعد من أهم الأسباب التي أوردها المراكشي في تدهور حكم المرابطين، والتي اتخذها المهدي بن تومرت ذريعة لمهاجمتهم؛ فيقول:« واستولى النساء على الأحوال وأسندت إليهن الأمور، وصارت كل امرأة من أكابر لمتونة ومسوفة مشتملة على كل مفسد وشرير وقاطع سبيل، وصاحب خمر ومخمور».(عبد الواحد المراكشي، 1881: 127).

وتتوجب الإشارة مراراً، الى أن هذه الإدعاءات لم ترد إلاّ في كتاب-المعجب-للمراكشي الذي نشأ وخدم في البلاط الموحدي، مما جعل لهذه الإتهامات أغراض دعائية لصالح الموحدين وداعيتهم ابن تومرت، الذي استطاع بدهائه أن يذكي مثل هذه الإشاعات، فأتى بعض الناس ناحية العقيدة ورمى المرابطين بكل نقيصةٍ، واعتبر انتساب بعض قادة المرابطين لأمهاتهم مثل محمد بن فاطمة وأخيه عبد الله، ومحمد بن عائشة وغيرهم كثر جرياً على عادة المرابطين نقيصة، ومعنى ذلك حسبه هو غلبة النساء على الأحوال والأمور، ولو كانت النساء المرابطيات غالبات على أمور الدولة والحكم، فكيف غفلت كتب التاريخ والتراجم ودواوين الشعر هذا الأمر؟! بل أنها لم تذكر إلا نساء فاضلات تعد على الأصابع كزينب النفزاوية، وزينب بنت إبراهيم بن تيفلويت(أنظر التعليق رقم) وغيرهن من النساء. وكيف تمر هذه الأمور على شعراء الهجاء؟! الذين لم يجدوا نقيصةً إلا وألصقوها بالأمراء المرابطين دون تردد، ولكن سماحة المرابطين كانت تغمرهم، وكان العقاب مجرد الإبعاد عن وظيفة الكتابة (عبد الواحد المراكشي، 1881: 131).

1-1-7: توظيف المرابطين لفرق من أهل الذمة في إدارة أمور المسلمين:

على الرغم من أن أمر استخدام النصارى كان شيئاً مألوفاً في الأندلس في عصري الإمارة والخلافة وعصر الطوائف، فإن استخدام المرابطين لفرقة من النصارى ضمن جندهم كان سبباً في ثورة أهل الأندلس عليهم، وذلك حسب ما ذكرته-عصمت دندش-نقلاً عن الأستاذ كوديرا (عبد اللطيف دندش1، 1988: 32)، والفرقة التي تكونت كانت من بعض النصارى الذين غربوا في الأندلس، أو ممن وقعوا في الأسر، وبعد فتوى من القاضي ابن رشد، وقد عهد بقيادتها للربرتير(أنظر التعليق رقم) الذي اعتنق الإسلام، وأنهم سكنوا في حي خاص بهم يعيشون فيه حياتهم بحرية، لهم حوانيتهم وحاناتهم وأسواقهم التي يبيعون فيها حوائجهم من بينها الخنازير التي يربونها، ومن الممكن أن ابن تومرت كان يقصدهم بعبارته التي وجهها للقاضي ابن الأسود في مجلس الأمير علي بن يوسف:« فهل

بلغك أن الخمر تباع جهارا، وتمشي الخنازير بين الناس، وتأخذ أموال اليتامى، وعدد من ذلك شيء كثير» (ابن خلكان، 1984، ج5: 50).

ولا يعرف على المرابطين أنهم استخدموا أهل الذمة في الشؤون الأخرى للمسلمين رغم أن هناك من قال ومنهم ابن الخطيب، أن الأمير علي بن يوسف:« هو أول من استعمل الروم بالمغرب وأركبهم وقدمهم على جباية المغارم» (ابن الخطيب، د.ت: 61-62). ولم يذكر مؤرخو الموحدين ذلك؛ بل بالعكس هناك رسالة مؤرخة سنة (535هـ/1141م) من الأمير تاشفين بن علي، تؤكد على عدم استخدام أهل الذمة في شؤون المسلمين، والتي يقول فيها:« وكذلك نؤكد عليكم أتَمَّ تأكيد أمر أهل الذمة، ألا يتصرف أحد منهم في أمور المسلمين لأنه من فساد الدين » (حسين مؤنس، 2000: 113).

وقد ساهم النصارى المرتزقة في الجيش المرابطي بشكل واضح، وأن أول دخول لهم فيه، كان في عهد الأمير يوسف بن تاشفين عند شرائه لحوالي240 فارساً نصرانياً من الأندلس، وشكل منهم فرقة الحرص الخاص لحمايته، ولإتقاء تمرد القبائل في المغرب، وقد ازداد عددهم بشكل لافت بعد انتصار الزلاقة، كما لقوا اهتماماً كبيراً في عهد ابنه الأمير علي (500-537هـ/1107-1142م) الذي خصص لهم مرتبات ومكافآت كبيرة على حساب باقي العناصر المكونة للجيش المرابطي، وهو ما أشار إليه ابن عذاري المراكشي في قوله:« كان علي بن يوسف في آخر أمره امتنع الإعطاء عن أجناده حتى رجع أكثرهم يكرون دوابهم، وهو أول من استعمل الروم وأركبهم في المغرب وجعلهم يحقدون على المسلمين في مغامراتهم ويأخذون منهم في نفقاتهم» (ابن عذاري المراكشي، 1983، ج4: 102). وفي عهد الأمير-تاشفين بن علي-، فقد تمَّ استخدام فرق النصارى بشكل كبير في الجيش، وكان ذلك واضح في أغلب المعارك التي خاضها المرابطين وبخاصةٍ ضد الموحدين (محمد غومة، 2003-2004: 11-13).

1-1-8: التسامح الكبير للمرابطين مع مثيري الفتن والقلاقل:

تهاون الأمراء المرابطين كثيراً في الضرب على أيدي العابثين بأمن الدولة، ولم يعرف عليهم أنهم أمروا بقتل مشاغب إلا في حالات نادرة، وقد كان أقصى عقاب

عندهم هو الإعتقال الطويل الأمد فقط، ونلمس هذا التهاون في معاملة أهل غرناطة عندما ثاروا على القائد الكبير مزدلي الذي أفنى حياته في الجهاد، وكان كل ما قام به الأمير علي بن يوسف تجاه المشاغبين من أهل غرناطة هو إصدار كتاب لهم فيه تهديداً خفيفاً يقول فيه:« إذا وصل إليكم خطابنا هذا فاتركوا سابقة الهوى، واسلكوا معه الطريق المثلى، ودعوا التنافس على حطام الدنيا، وليقبل كل واحدٍ منكم على ما يعنيه، ولا يشتغل بما ينصبه ويعنيه» (محمود مكي، 1960: 184). ولو كان هذا التشغيب حدث في عهد الموحدين لكان مصير أصحابه بالتأكيد العقاب الشديد (عبد اللطيف دندش1، 1988: 35).

كما كانت معاملة الأمير علي بن يوسف لزعماء الصوفية المتطرفين، فيها كثيرٌ من التسامح رغم تورطهم المعلن في ضرب وهز أمن الدولة وإستقرارها، ومرد هذا التسامح أساساً إلى طبيعة وسلوك الأمراء المرابطين الذي يميل إلى السلوك الصوفي، فلم تؤخذ حركة المهدي أو حركة المريدين فيما بعد بجدية واهتمام، كما حدث مثلاً لكتب الغزالي، حتى أن الرسائل الكثيرة الصادرة من أمير المسلمين تاشفين بن علي تخلوا من أية إشارة لهذه الحركة؛ وإنما الإلحاح على الإلتزام بالمذهب المالكي في القضاء والفتوى وكل ما يتعلق بالأحكام بين الناس، ومحاربة كتب أبي حامد الغزالي (عبد اللطيف دندش1، 1988: 43-44).

1-1-9: تزايد ظاهرة التصوف وما رافقها من ثورات للمريدين والقضاة:

كان من نتائج بداية ظهور الزهد والتصوف وأخذهما في الإنتشار في البلاد خاصةً في الأندلس، بعد أن عمَّ الفساد في المجتمع وتعرضت البلاد لهجمات النصارى، وتسلط الفقهاء على الناس، وفرضوا عليهم مذهبهم وأرائهم، وضعف الحكام المرابطين، واستفحل الفساد بين عمال الدولة وقضاتها، هو لجوء الكثير من الناس إلى الإنعزال عن الحياة والزهد فيها، وظهرت في الأندلس عدة فرق للزهاد والمتصوفة، كان من أشهرها مدرسة المرية التي تزعمها المتصوف الكبير-أبو العباس بن العريف-، والذي امتدت حركته إلى مناطق كثيرة في الأندلس كقرطبة، ومرسيه، وبلنسيه، وغرناطة وغيرها، وأرسل مريديه إلى كل مكان. وقد تورط

بعض المتطرفين من المتصوفة في ضرب أمن الدولة واستقرارها من خلال اقدامهم على تنفيذ عدة اغتيالات لأعوان الدولة المرابطية ورجالاتها، كإغتيال القاضي-أبي عبد الله محمد بن الحاج-قاضي الجماعة بقرطبة(ابن بشكوال، 1989: 844-845). والإعتداء كذلك على-أبو بكر بن عربي-قاضي الجماعة باشبيلية (ابن عذاري المراكشي ، 1983، ج4: 93). وهو الأمر الذي دفع الحكام المرابطين الى التخلي عن سياسة اللين والمهادنة مع المتصوفة والمريدين التي دعا اليها ابن عريف، والتشدد في ملاحقتهم والتصدي لهم، ذلك ما أحدث انشقاقاً بين صفوفهم (عصام الفقي، 1990: 262).

من ناحيةٍ أخرى؛ فقد قام الفقهاء بالتصدي لإبن عريف، وأشاروا على الأمير علي بن يوسف بضرورة الخلاص منه ومن أتباعه، فأمر الأمير بنفيه إلى مراكش ليكون بعيداً عن مريديه، لكنه عاد للأندلس وتوفي بها سنة(536هـ/1141م)، وتزعم حركة المريدين من بعده-أحمد بن قسي-الذي كان توجهه مغايراً تماماً لسلفه، فألب الناس على المرابطين، ودعا إلى نزع الحكم منهم والثورة ضدهم، مستغلاً الضعف المخيَّم عليهم، وتشتت قواهم وتعدد الجبهات ضدهم، من قبل النصارى في الأندلس، والموحدين في المغرب، لتبدأ ثورة المريدين فعلاً ضد المرابطين سنة(539هـ/ 1144م) (عصام الفقي، 1990: 263).

وقد استغل ابن قسي تزايد قوته وكثرت أتباعه، وأخذ في مهاجمة الحصون المرابطية وطرد الحاميات الموجودة بها، لكن أمير جند المرابطين بقرطبة وهو-ابن غانية-، استطاع أن يتصدى لثورتهم ويلحق بهم هزائم كثيرة، غير أن ذلك لم يثن من عزيمة ابن قسي، الذي تحالف مع الموحدين بحجة أنه يؤمن بالعقائد نفسها التي جاء بها عبد الله بن تومرت، فعينه عبد المؤمن والياً على غرب الأندلس، الأمر الذي ألب عليه أنصاره الذين تحولوا عنه إلى المرابطين (القادري بوتشيش، 1983: 170).

ثم ثار بعدها ما تبقى من أنصاره في شلب بغرب الأندلس ضده وقتلوه، وذلك بعدما تحالف مع ألفونس السابع ضد الموحدين، وبذلك تنتهي ثورة المريدين

التي كانت تستهدف الخلاص من حكم المرابطين (عصام الفقي، 1990: 171)، وقد كان ذلك في حدود سنة(551هـ/1156م) (القادري بوتشيش، 1983: 171).

أما بالنسبة لثورة القضاة، فقد استغل العامة في قرطبة ابتعاد القائد المرابطي-ابن غانية-عن المدينة لمحاربة المريدين، وأعلنوا التمرد وثاروا بقيادة القاضي-أبي جعفر بن حمدين-، وخلعوا ابن غانية وولوا عليهم ابن حمدين مكانه، وطردوا المرابطين خارج المدينة، ثم لم يلبث أن ثار الناس بإبن حمدين، وولوا-سيف الدولة ابن هود-عليهم، والذي كان عميلاً لـ:-ألفونس-ملك قشتالة، يحرضه ضد المسلمين، ويستخدمه في إشاعة الفرقة بينهم، وانتزاع ما يستطيع من أراضيهم، ولطالما كان يعاونه بالمال والجند لبلوغ أهدافه، وسرعان ما قتل ابن هود وتولى-ابن مردنيش-أمور شرق الأندلس مكانه، وواجه الموحدون مقاومة عنيفة منه، واستمر مسيطرًا على شرق الأندلس حتى عام(567هـ/1171م)، أما زعماء غرب ووسط الأندلس فقد استسلموا للموحدين ودخلوا في طاعتهم (عصام الفقي، 1990: 264).

2- مظاهر التداعي والإنحلال وانعكاساتها على الدولة والمجتمع المرابطي:

سجلت المصادر وجود الكثير من المظاهر والممارسات السلبية سادت معظم المجالات، ودلت في الغالب على مدى تداعي وتحلل حكم المرابطين، وذلك بداية من فترة حكم الأمير علي بن يوسف، من بينها:

2-1: ازدياد نفوذ الفقهاء المالكيين وتحكمهم في دواليب الدولة:

بما أن المرابطين كانوا قوماً متمسكين بالدِّين ممجدين لرجاله، فقد ظَّل فقهاء المذهب المالكي يحكمون قبضتهم على دواليب السلطة في دولة المرابطين وذلك منذ عهد عبدالله بن ياسين، حتى أن المرابطين كانوا بعد موته لا يبرمون أمراً من أمور دولتهم دون استشارة الفقهاء، ومن أكبر الأدلة على نفوذهم كذلك أن الأمير يوسف بن تاشفين حين همَّ بمساعدة مسلمي الأندلس ضد النصارى ، لم يرى بُداً من الرجوع إلى رأي الفقهاء الذين أفتوه بوجوب حرب النصارى، ثم أملوا عليه

الكتاب الذي وجهه إلى ألفونس السادس في الأندلس، وكانت هذه الرسالة على نمط الرسائل التي كان يرسلها النبي والخلفاء الراشدين من بعده إلى الملوك، ومما يدُّل أيضاً على نفوذهم ما ذكره المراكشي:« أن علي بن يوسف بن تاشفين كان لا يقطع أمراً دون مشاورة الفقهاء» (عبد الواحد المراكشي، 1881: 122).

كما لا ننسى أن الفقهاء في الأندلس هُم الذين طلبوا من يوسف ابن تاشفين القدوم إلى بلدهم وأفتوه بخلع ملوك الطوائف، وأن علي ابن يوسف لما فكر في تسوير مدينة مراكش سنة(519هـ/ 1128م)، استفتى الفقهاء كذلك، وقد اشترك ابن رشد الأندلسي في مجلس الأمير علي وأفتى بصحة هذه الفتوى، وأفتاه كذلك بإبعاد النصارى المعاهدين بغرناطة إلى المغرب لمساعدتهم(ابن روذمير) وغدرهم بالمسلمين، فتَّم ترحيلهم إلى المغرب إلى مكناسة وسلا (ابن الخطيب، د.ت: 70).

وعليه قويت سلطة الفقهاء المالكيين في عهد المرابطين وخاصةً في بلاد الأندلس؛ إذ لجأ المرابطين إلى استشارة الفقهاء في كل أمور السياسة والحكم، وهو الأمر الذي أضعف أداة الحكم لديهم لأن رجال الدين ليسوا هم أهل سياسة، وأدى ذلك بمرور الزمن إلى سخط الأهالي على حكومة المرابطين (عصام الفقي، 1990: 260)، وقد نال الفقهاء من ذلك النفوذ مكاسب كبيرة وثروات ضخمة، أثارت حفائظ الشعب تجاههم، وكان من الطبيعي أن ينتهز الفقهاء فترة ضعف دولة المرابطين ويكونون أول المغامرين، ويعلن كل واحد منهم الإستقلال في بلده (عبد اللطيف دندش2، 1988: 133).

وعلى هذا الأساس؛ نلاحظ أن دولة المرابطين لما كانت ذات أساس ديني، وملوكها الثلاثة ذووا زهد وعبادة، فقد قربوا إليهم الفقهاء والعلماء ليمنحوا الدولة الصبغة الدينية التي يرغبونها، فأرتفع شأن هؤلاء أكثر من ذي قبل، فقد كان الأمير علي بن يوسف:« لا يقطع أمراً في جميع مملكته دون مشاورة الفقهاء، وكان إذا ولى أحداً من قضاته كان فيما يعهد إليه ألا يقطع أمراً، ولا يبت حكومة في صغير من الأمور ولا كبير إلا بحضور أربعة من الفقهاء، فبلغوا في أيامه مبلغاً عظيماً لم

يبلغوا مثله في الصدر الأول من فتح الأندلس» (عبد الواحد المراكشي، 1881: 122).

2-2: تزايد مشاركات وأدوار المرأة المرابطية في مختلف المجالات:

وذلك الذي أعتبر في نظر خصومهم وفي مقدمتهم عبدالله بن تومرت مظهراً من مظاهر فساد حكمهم وابتعادهم عن نهج الشرع الصحيح، ووظفه كمبرراً ودافعاً للثورة عليهم وتأليب قلوب الناس والعامة عليهم. متهماً إياهم بالخنوع والخضوع، والإنقياد للنساء وتنفيذ توجيهاتهن وأوامرهن.

قبل ذلك، فقد أدت المرأة المرابطية على الصعيد السياسي دروراً قلَّ نظيره؛ إذ كان لها ضلع واسع في نشأة الدولة المرابطية، وأكبر دليل على ذلك الدور الذي لعبته زينب النفزاوية زوجة الأمير يوسف ابن تاشفين بما كان لها من الحنكة والذكاء (القادري بوتشيش، 1983: 48) جعلها تتفوق حتى على الرجال:« وكانت من أحسن النساء ولها الحكم في بلاده» (ابن خلكان، 1984، ج7، 125). فلعبت دور المستشار ليوسف بن تاشفين، وكان كلما واجهته مشكلة لجأ إليها، بل ويعود لها الفضل في تدبير فتح المرابطين للمغرب، فاستقامت له الدولة وترسخت جذورها بفضل حنكتها وذكائها، وهذا ما جعل البعض يشبه دورها بالدور الذي قامت به زوجات النبي خديجة وعائشة في التمكين للدعوة الإسلامية (القادري بوتشيش، 1983: 49).

تجلى دور المرأة بوضوح كذلك في تدخلها في ولاية العهد وعزل الولاة والقضاة وردِّهم إلى مناصبهم؛ بل أن إحداهُنّ َقد تزعمت إحدى قبائل مسوفة في منطقة تغاره بالجنوب المغربي، وتشير المصادر أن إحدى المرابطيات وهي-تماكونت ابنة ينتيان بن عمر-تمكنت من إقناع عبد المومن بن علي عندما اجتاحت الجيوش الموحدية مراكش من أن يطلق سراحها مع كل النِّساء اللائي كنَّ معها، وقد بلغ عددهنَّ 1500. فأمتثل الخليفة الموحدي لطلبها، وأطلق سراحهنَّ مكرمات معززات (البيذق، 1971: 91-92).

ونظراً لما تمتعت به المرأة من دور سياسي رفيع، فقد تغنى بفضائلها الشعراء، وأنها لم تقل شأناً عن الأمراء في رعاية الشعراء وإجزال العطايا لهم، فأصبحت

مقصدًا لذوي الحاجات لشفاعتها، تهب المنح وتعفوا عن المساجين، وترد المنكوبين إلى مناصبهم، ويذكر في هذا الصدد أن الشاعر ابن خفاجة، قد كتب إلى الأميرة- مريم بنت أبي بكر بن تيفاويت- قصيدةً يتشفع فيها لزوجها الأمير- أبي الطاهر تميم-، فنفذت عهده بأجمل وجوه البر والمكرمات (القادري بوتشيش، 1983: 49).

علاوةً على دور المرأة في الحياة السياسية، فإنها قامت بدور هام على المستوى الحربي، تشارك إلى جانب الرجال في المعارك، ومنهنَّ مثالاً زوجة تاشفين بن علي التي خرجت مع زوجها على الفرس نفسه إبان المواجهة الأخيرة مع الموحدين في وهران، وشهد البيذق نفسه رغم عدائه للمرابطين ببسالة-فانو بنت عمر بنت ينتيان-التي قاومت الموحدين في هيئة رجل، واستطاعت أن تنتزع إعجاب قادة الجيش الموحدي(البيذق، 1971: 64)، كما لا يقل شأن المرأة في المجال الثقافي إذ أنها تعاطت العلوم والمعرفة بشكل ملفت للإنتباه، وساهمت في مجالس العلم وروَّينَّ الحديث، وقرأنَّ على الشيوخ (القادري بوتشيش، 1983: 50).

ونخلص مما سبق، أن المرأة المرابطية قد اضطلعت بمهام كبيرة، وكانت لها أدوار مهمة في شتى المجالات، وهو ما يفسر اعتزاز بعض الرجال والقادة المرابطين بالإنتساب إلى أمهاتهنَّ، أمثال - ابراهيم بن يوسف بن تاشفين-، الذي عرف بإبن تعيشت اسم أمه (ابن القطان، 1990: 130)، واشتهر الأمير -محمد بن عبد الله بن ينغمر اللمتوني- باسم ابن حواء (البيذق، 1971: 64)، كما انتسب بعض الولاة والقادة إلى أمهاتهم كذلك مثل والي بلنسية -محمد بن فاطمة-(ابن عذاري المراكشي، 1983، ج2: 42) وأخيه-عبد الله بن فاطمة-، وعرف أحد ولاة قرطبة بإسم ابن جنونة، واشتهر القائد -ابن عائشة- بقيادة الجيوش المرابطية (ابن عذاري المراكشي، 1983، ج2: 79)، والأمثلة كثيرة في هذا الشأن.

2-2: تأثر المرابطين بالأندلسيين وانغماسهم في حياة الترف والنعيم:

على الرغم من نشأتهم الدينية في الصحراء، وتأثرهم بتعاليم الإمام الفقيه عبد الله بن ياسين، لم يستطع المرابطون مقاومة مباهج الحضارة الأندلسية بكل مظاهرها ومفاتنها، وتعد فترة حكم الأمير علي بن يوسف شاهداً على الصبغة الأندلسية في

دولة المرابطين، و لم تؤثر الأندلس في المغرب من عدة نواحي فحسب؛ وإنما قصد مراكش عدد كبير من الأندلسيين للإقامة فيها، وقد أوضح المراكشي ذلك بقوله:« و لم يزل أمير المسلمين من أول إمارته يستدعي(عبد اللطيف دندش2، 188: 131) أعيان الكتاب من جزيرة الأندلس ، وصرف عنايته إلى ذلك حتى اجتمع له منهم ما لم يجتمع لملك». (عبد الواحد المراكشي، 1881: 123-124).

فقد بدأ المرابطون ينغمسون في مباهج الحضارة الأندلسية، فعاشوا حياة أقرب الى ملوك الطوائف، وتجلى ذلك بوضوح في بناء القصور والْمَنِيَاتْ، سواء بالمغرب أو الأندلس، والذي شاع في عهد الأمير علي ابن يوسف، وليس أدل على ذلك من القصر الذي بناه لنفسه في اشبيلية، وكان ينزل فيه عند زيارته للمدينة، كما أقام الأمير قصراً آخر في مدينة مرسيه، فضلاً عن التأنق في المأكل والملبس، وحذا الأمراء حذو الأمير علي، فعاشوا في ولاياتهم حياةً مترفةً، وتأنقوا في المأكل والملبس وتشييد القصور (حمدي عبد المنعم، 1997: 344). وقد أشار الإدريسي إلى كثرة قصور الأمراء والقادة في مراكش حاضرة الدولة في قوله:« وكان بها-أي مراكش- أعداد قصور لكثير من الأمراء والقواد وخدم الدولة». (الإدريسي الشريف، 1866: 68).

فعلى الرغم من طبيعتهم البدوية في الصحراء، والطابع الديني لحياتهم اليومية التي رباهم عليها ابن ياسين، فلم يستطع المرابطون مقاومة مباهج الحضارة الأندلسية بكل مظاهرها ومفاتنها، ولا سيما فن الغناء والموسيقى والطرب، وإذا كان ذلك قد ظهر واضحاً في عصر الأمير علي بن يوسف، فإن البوادر الأولى لذلك كانت في عصر يوسف بن تاشفين نفسه؛ إذ يؤكد الباحث-حسن أحمد محمود-، بأن الأمير يوسف كان يستمع الغناء ويطرب له، فقد أهداه المعتمد بن عباد جارية له حسنة الصوت جيدة الغناء سمع منها وطرب لغنائها (حسن محمود، د. ت: 442).

غير أن عصر علي بن يوسف، كان عصر انغماس بمباهج الحضارة الأندلسية، فقد شغُف بمجالس الغناء والطرب وتجلى ذلك في المجلس الذي حضره، والذي قال فيه الوزير أبو محمد عبد الرحمن بن مالك المعافري:

لا تلمني إذا طربت لشجـــوٍ *** يبعث الأنس فالكريم طروب

ليس شَّقُ الجيوب حقٌ علينا *** إنما الحق أن تُشَّق القلـــوب (المقري التلمساني، 1988، ج3: 232).

وكانت مجالس الأنس والطرب من الأمور المألوفة في حياة أمراء الأندلس، فقد كانوا يعقدون مجالس الطرب في قصورهم ومَنِيَاتِهِم ، ويصف ابن خفاجة البلنسي مجلساً من تلك المجالس في بلنسية فيقول:

فكم يوم لهـــــو قد أردنا بأقفه *** نجـــوم كؤس بين أقمار ندمـــان

وللقضيب والأطيار ملهى يجزعه *** فما شئت من رقص على رجع ألحان (عبدالعزيز سالم، 1997، ج2: 110).

فقد كان انغماس المرابطين في حياة الترف والنعيم إذن، سبباً في فقدان خصائصهم البدوية، وخضعوا للنساء وانغمسوا في الشهوات والملذات، فضعف أمرهم واختلت أحوالهم.

2-3: انتشار الفساد واللهو وتحلل الأخلاق:

ما ميز الحياة الإجتماعية بالمغرب والأندلس أثناء فترة المرابطين، هو انتشار بعض العادات المحرمة كشرب الخمر، فرغم التحفظ على مزاعم ابن تومرت بسبب معاداته للمرابطين، والتي قال فيها بأن الخمور كانت تباع وتشترى علناً في الأسواق (أحمد الناصري، 1974: 76). إلا أن هناك نصوصاً أخرى مرابطية تؤكد ذلك، ولكن ليس بالشكل الذي ادعاه ابن تومرت، فقد وردت بعض الرسائل تشير إلى انتشار هذه العادة السيئة، وتطالب ولاة الأمور بالتدخل لوضع حدٍ لها، فقد كتب الفتح بن خاقان رسالةً إلى أحد القضاة يناشده العمل على الحد من انتشار هذه العادة الذميمة (محمود مكي، 1960: 189)، التي عمت المنازل (أصبحت الخمور تصنع في المنازل نتيجة الرقابة ومنع المرابطين المحلات بيعها)، و لم يسلم منها حتى هو نفسه أي-ابن خاقان-، وحسبنا أن القاضي عياض قد أقام عليه الحد حين دخل إلى مجلسه مخموراً. (الونشريسي، 1981، ج2: 410-411).

اذ تعكس إحدى الرسائل المرابطية الرسمية الموجهة إلى أهل بلنسية هذه الحقيقة، وقد تضمنت أمراً بقطع مادتها وإراقتها ومنع ذيوعها بين الناس (القادري بوتشيش، 1983: 97). لكن هذه الأوامر لم تكن من الحزم والشِّدة التي تسمح بإستئصال شأفة هذه العادة التي أصبحت ترمز عند متعاطيها من الوجهاء إلى الترف والتفسخ الأخلاقي الذي وصلوا إليه، أما طبقة العامة فلم تفعل ذلك إلا لتغطية هلى المشاكل التي كانت تعترضتها في حياتها، فعندما استفسر القاضي ابن حمدين أحد السكارى الذين ألقى عليهم القبض عن سبب شربه للخمر علناً علل ذلك:« بفساد الزمان ومجافاة الإخوان» (الونشريسي، 1981، ج2: 410).

وسجلت الروايات عدداً من الحالات ضبط فيها أعوان الشرطة بعض العوام يحملون زجاجات الخمر، فقد عثروا على رجل متلبس ساقوه إلى القاضي أبي بكر بن العربي، فأدعى الرجل أنه يحمل الخمر لخادمة رومية توجد عنده بالمنزل، فاكتفى القاضي بلعنه (القادري بوتشيش، 1983: 98). ولعل أقصى ما وصلت إليه عقوبة شارب الخمر تمثلت في جلده بعد رجوعه إلى رشده، وهو ما يزكيه قول ابن عبدون:« إنه يجب ألا يجلد سكران حتى يفيق». (ابن عبدون التجيي، 1955: 49).

كما يضاف إلى عادة شرب الخمر، عادة اجتماعية لا تقل خطورة عنها وهي عشق الغلمان التي انتشرت في أوساط الخاصة دون انكار وجودها في أوساط العامة لكن في حدود ضيقة، مما يعكس أثر الوضع الإجتماعي على العادات والأخلاق، فرغم ما عرف عن-عبد الله بن عائشة-من ورع وزهد إلا أنه ظَّل يعشق فتى ويهواه (ابن خاقان، 1983: 346). وتترد في كتب السير والتراجم عادة عشق الغلمان من طرف أعلام الحقبة المرابطية وفقهائها بكثرة، وقد وصل الحد بأحدهم إلى أنه هوى غلاماً فكان:« لا يتصرف إلا في صفاته ولا يقف إلا بعرفانه، ولا يؤرقه إلا جواه» (ابن خاقان، 1983: 369). ويتبين من إحدى النوازل أن دور الخاصة والأعيان قد اكتظت بهم، وأنهم كانوا يورثون (القادري بوتشيش، 1983: 99-100).

بجانب ذلك، انتشرت مجالس اللهو والغناء خاصة في الأندلس؛ إذ اشتهرت بعض المدن بكثرة ملاهيها وأماكن الدعارة مثل برشانة وأبذة (المقري التلمساني، 1988، ج3: 117)، وكان يضرب المثل باشبيلية في الخلاعة (المقري التلمساني، 1988، ج1: 159)، مما جعل بعض المحتسبين يحاربون الملاهي، لكن محاولاتهم ظَلَّت صيحة في واد؛ لأن بعض الأمراء المرابطين أنفسهم قد شغفوا بمجالس اللَّهو، وحسبنا أن يوسف بن تاشفين رغم تقواه كان يسمع الغناء، وقد أهداه المعتمد بن عباد كما رأيناه جارية حسنة الصوت، جيدة الغناء (القادري بوتشيش، 1983، 100).

أما ابنه علي الذي فتن بمباهج الحضارة الأندلسية وتعلق بمجالس الطرب أحياناً، وأنه كان يقبل على الغزل رغم ورعه وتقواه وطرب له، ومن ذلك أنه أرسل إلى الشاعر ابن خفاجة وزيراً يقول له:(إن السلطان يريد أن تقول شعراً تفتحه بالغزل)، فلبى ابن خفاجة طلبه وكتب قصيدةً في الغزل رفعها إليه (حسن محمود، د.ت: 442).

و لم تكن بلاد المغرب بمعزل عن هذا المناخ العام، فقد أكد البيدق عند حديثه عن الطريق التي سلكها ابن تومرت في طريق عودته إلى مراكش أنه شاهد:«الحوانيت مملوءة دفوفاً وقراقر، ومزامر وعيداناً، وروطاً وأربيه وكيتارات، وجميع آلات اللَّهو» (ابن خفاجة، 2006: 290). وهو ما حمل المهدي على تكسيرها وتخريب ما بقي منها رغم ما تحمله هذه الرواية من تعصب (البيذق، 1971: 23-24)، وحقد على المرابطين(أنظر التعليق رقم). وفي هذه البيئة الفاسدة التي صاحبت هرم الدولة وتفسخها انتشرت عادات اجتماعية شاذة، كاستشراء الفساد والزنا الذي صار مشكلةً اجتماعية حطت بثقلها على المجتمع وطرحت على الفقهاء، فقد أشارت إحدى النوازل إلى امرأة قد(حملت من الزنا مرتين وأنها قتلت ما ولدت) (القادري بوتشيش، 1983: 100-101).

2-4: العجز عن القيام بمهة الدفاع عن الأندلس:

مما ظهر على المرابطين في آخر أيام علي بن يوسف، هو العجز عن الدفاع عن الأندلس، وكان هذا العجز نتيجة للتضحيات المتوالية التي تحملها المرابطون في

الجهاد ضد الممالك المسيحية وفقدهم فيها الكثير من كبار قادتهم (القادري بوتشيش، 1983: 101).

وقد كان لظهور حركة الموحدين بزعامة ابن تومرت ومهاجمتهم لأملاك المرابطين في المغرب، الدور الرئيسي في إضعاف قوة المرابطين وشغلهم على الدفاع عن الأندلس، وعبر ابن أبي زرع عن ذلك بقوله:« وفي سنة(514هـ/1119م) ظهر المهدي الموحد بالمغرب واجتمع في طريقه من المشرق بعبد المؤمن ابن علي، وفي سنة (519هـ/1124م) ضعفت الدولة اللمتونية وظهر فيها الخلل، واشتغلوا بحرب المهدي والموحدين القائمين عليهم بجبل درن وعجزوا عن نصرة الأندلس، وضعف أحوالهم واشتغلوا بأنفسهم عنها، وقوى أمر الموحدين، وملكوا بلاد كثيرة من بلاد المغرب حتى ضاقت الأرض على المرابطين» (ابن أبي زرع، 1917: 110). ولاشك أن الأزمة المالية التي اشتدت مع قيام ثورة ابن تومرت، قد ضاعفت من الإلتزامات العسكرية للدولة، وساعدت على توقف الزراعة وما رافق ذلك من جذب حتى جفت الأرض وقلّت المجابي، وكثرت الضرائب على الرعايا من العدوتين والتي كانت سبباً في الثورة، فالوسائل التي أتبعت في جمعها كانت سبباً في تذمر الناس وثورتهم (عبد اللطيف دندش1، 1988: 45).

2-4: انهيار قاعدة الجهاد التي قامت على أساسها دولة المرابطين:

لما كانت دولة المرابطين قائمة على قاعدة الجهاد ومحاربة الأعداء، فقد كانت تكاليف الحرب تأتي على معظم دخل الدولة، علاوةً على أن أمراء المرابطين لم يكونوا مثل أمير المسلمين في تعففه عن أموال الناس، ويظهر ذلك مما كتبه ابن عبدون (عبد اللطيف دندش1، 1988: 135)؛ إذ يأسف ويقول:« إن الرئيس العادل الساعي إلى الخير، المرتبط بالناموس أصبح يلتمس، فلا يجد » (ابن عبدون التجيي، 1955، مج2: 5).

ووصل الأمر إلى استبداد بعض المرابطين في وظائفهم وكان يخشى محاسبتهم، ولذلك نصح ابن عبدون في رسالته أن تكون هناك طبقة من الموظفين منهم صاحب المدينة وصاحب المواريث والقاضي والمحتسب بأن يكونوا من أهل البلاد:« فإنهم أعرف بأمور الناس وطبقاتهم، وهم أيضاً أعدل في الحكم، وأحسن سيرة من

غيرهم، وهم أنفع للسلطان وأوثق؛ لأن الرئيس يستحي أن يحاسب في عمله مرابطاً، أو ينكر عليه شيئاً مما قد فشا له عنده في الخطة التي ولاه » (ابن عبدون التجيبي، 1955، مج2: 16). ويبين كلام ابن عبدون مدى النفوذ الذي كان يتمتع به الموظف المرابطي (عبد اللطيف دندش2، 188: 163).

وهكذا انهارت القاعدة الجهادية التي قامت عليها دولة المرابطين، وابتعدت المسافة بين فئتي الإدارة العليا التي يمثلها أمير المسلمين الصالح الزاهد علي بن يوسف بن تاشفين وحوله الفقهاء، والفئة الثانية التي يمثلها الولاة إما مستبدون أو ضعاف تتصرف النساء في شؤون ولاياتهم، وكان معنى ذلك أن أية ريح قوية تهب على الدولة فسوف تعصف بها وتقضي عليها.

خاتمة:

في ختام هذا البحث، يمكننا الخروج بمجموعة من النتائج حول تداعي وانحلال حكم دولة المرابطين، وانعكاسها على دولتهم ومجتمعهم ولعل من أبرزها:

-تعددت أسباب وعوامل تداعي وإنحلال حكم المرابطين، ويأتي على رأسها، ضعف القادة الذين حكموا البلاد بعد وفاة الأمير يوسف بن تاشفين، وتولي ابنه علي بن يوسف الحكم خلفاً له، والذي عرف بتدينه وورعه، وتساهله مع مثيري الفتن والمشاكل داخل الدولة من أمثال المتصوفة والمريدين والقضاة والدعاة المناوئين لحكمهم، وأولهم عبدالله بن تومرت، اضافة الى سيطرة الفقهاء على شؤون الدولة، وتجمدهم عند فروع مذهب الإمام مالك وتركهم للأصول، وتعدد الجبهات ضد المرابطين، من نصارى في الشمال، وثوارات القضاة والمتصوفة بالأندلس، وازدياد ضربات الموحدين ببلاد المغرب.

-تجلت مظاهر هذا الإنحلال والضعف في الكثير من المجالات والتي كان من أهمها، ازدياد نفوذ وتحكم الفقهاء المالكيين في الدولة المرابطية، وتأثر المرابطين بالأندلسيين وانغماسهم في حياة الترف والنعيم، وبداية تخليهم عن صفاتهم العسكرية والجهادية التي تكونوا عليها، وانتشار مظاهر الفساد واللهو وتحلل الأخلاق التي من أهم مظاهرها انتشار مجالس الغناء والطرب والرقص، وانتشار الرذائل والخمور، وكذا العجز عن القيام بمهام الدفاع عن الأندلس، وتدخل المرأة

المرابطية ومشاركتها في مختلف المجالات في الدولة والمجتمع كشؤون الحكم، الأدب، الشعر والعلم وغيرها.

-وقد كان من أبرز النتائج التي تم التوصل اليها من خلال هذه الدراسة، هو أن ضعف دعوة المرابطين، وانحلال عصبية صنهاجة، فتح المجال أمام ظهور دعوة دينية أخرى، بقيادة عصبية قبيلة أخرى على حسابها وهي قبيلة مصمودة، ألا وهي دعوة الموحدين بقيادة عبد الله بن تومرت، الذي عرف كيف يستغل ضعف المرابطين وأخطائهم، ويستثمر في ثغراتهم وهفواتهم وبالأخص احراقهم لكتب الغزالي وبالأخص كتابه- إحياء علوم الدين-، في نشر دعوته القائمة على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.ملخص-)

1- عن هذه الغزوة أنظر: ابن الخطيب، الحلل، مصدر سابق، ص67 -68./ابن عذاري المراكشي، المصدر السابق، ج4، ص69-70.

2- هو عبد الله بن تومرت السوسي الهرعي المصمودي، مؤسس دولة الموحدين، ويسمى بالبربرية أمغار، وبالعربية الشيخ، وكان رجلاً فقيرًا مشتغلاً بطلب العلم وتحصيله، وارتحل إلى المشرق لطلب العلم حيث التقى بمشايخ العلم هناك وسمع منهم، وأخذ عنهم علماً كثيرا، حفظ الكثير من الأحاديث، ونبغ في علم الأصول والإعتقادات، ولازم الإمام أبو حامد الغزالي مدة ثلاثة سنوات لإقتباس العلم منه، ويقال أنه هو الذي تنبأ للمهدي بأنه سيكون له شأن عظيم في المغرب. أنظر: أبو بكر بن علي الصنهاجي، المعروف بالبيذق، **أخبار المهدي بن تومرت وبداية دولة الموحدين**، الرباط، المغرب، دار المنصور للطباعة، الرباط، (د.ط)، 1971، ص11./ابن أبي زرع أبو الحسن علي، **الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس**، تصحيح يوحنا تورنبرغ، طبعة أوبسالية، (د.ط)، 1917، ص110-111.

3- زينب النفزاوية زوجة الأمير يوسف بن تاشفين، التي وصفت بأنها حازمة لبيبة، ذات رأي وعقل وجزالة ومعرفةً بالأمور. أنظر: ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص86. وهناك أيضاً زينب بنت إبراهيم ابن تيفلويت زوج أبي الطاهر تميم بن يوسف بن تاشفين التي وصفت بأنها كانت من أهل الخير والنوافل والصالصلة. أنظر: ابن الأبار، التكملة لكتاب الصلة، نشر عزت العطار الحسيني، القاهرة، 1956م، رقم2876. نقلاً عن: عبد اللطيف دندش، المرجع السابق، الأندلس في نهاية المرابطين، ص28.

4- الربرتيرReverter: كان من قادة أمير برشلونة وأراغون ومن كبار رجال دولته، وقد وقع في أسر علي بن ميمون قائد الأسطول المرابطي، فأتى به إلى مراكش حيث اعتنق الإسلام، ودخل في خدمة المرابطين، ولازم الأمير علي ابن يوسف بن تاشفين، فولاه قيادة الفرقة النصرانية، وقد قتل في إحدى المعارك بين المرابطين والموحدين في بلاد السوس، وقد أنجب ولداً أسماه علياً دخل فيما بعد خدمة الموحدين إلى أن قتل في معركة

بين جيش الموحدين وثوار بني غانية. أنظر: ابن عذاري المراكشي، المصدر السابق، ج4، ص103./ عبد اللطيف دندش، المرجع السابق، الأندلس في نهاية المرابطين، ص32.

5-رغم هذا التعصب فإن معظم المؤرخين قد تناقلوا هذه الرواية أنظر: لسان الدين بن الخطيب، **أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الإحتلام من ملوك الإسلام**، تحقيق: أحمد مختار العبادي ومحمد ابراهيم الكتاني، دار الكتاب، الدار البيضاء، المغرب، (د.ط)، 1964، ج3، ص267./ ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص111.

المراجع:

1-ابراهيم القادري بوتشيش،(1983). المغرب والأندلس في عصر المرابطين (المجتمع، الذهنيات، الأولياء). بيروت: دار الطليعة.

2- ابن أبي زرع، أبو الحسن علي،(1917). الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس. فرنسا: طبعة أوبسالية.

3- ابن القطان المراكشي،(1990). نظم الجمان لترتيب ما سلف من أخبار الزمان. بيروت: دار الغرب الإسلامي.

4- ابن عبدون التجيبي،(1955). ثلاث رسائل أندلسية في آداب الحسبة والمحتسب، تحقيق: ليفي بروفنسال. القاهرة: المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية.

5- ابن عذاري المراكشي(1983). البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب. بيروت: دار الثقافة.

أبو اسحاق بن خفاجة،(2006). ديـــوانه، تحقيق: عبد الله سنده. بيروت: دار المعرفة.

6- أبو العباس أحمد بن خالد الناصري، (1974). الإستقصا لدول المغرب الأقصى . الدار البيضاء: دار الكتاب.

7- أبو العباس أحمد بن يحي الونشريسي،(1981). المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى أهل إفريقية والأندلس والمغرب. الرباط: وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية المغربية.

8- أبو القاسم خلف بن عبد الملك بن بشكوال،(1989). الصلة في تاريخ أئمة الأندلس ومحدثيهم وفقهائهم وأدبائهم. بيروت: دار الكتاب المصري، القاهرة، ودار الكتاب اللبناني.

9- أبو بكر بن علي الصنهاجي المعروف بالبيذق، (1971). أخبار المهدي بن تومرت وبداية دولة الموحدين. الرباط: دار المنصور للطباعة.

10- أبي العباس شمس الدين بن خلكان. (1984). وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان. بيروت: دار صادر.

11- أبي نصر الفتح بن محمد بن خاقان،(1983). مطمح الأنفس ومسرح الأنس في ملح أهل الأندلس. بيروت: مؤسسة الرسالة.

12- أحمد بن محمد المقري التلمساني،(1988). نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب. بيروت: دار صادر.

13- أحمد حسن محمود،(د.ت)، قيام دولة المرابطين(صفحة مشرقة من تاريخ المغرب في العصور الوسطى). القاهرة: دار الفكر العربي.

14- الإدريسي الشريف،(1866). المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس. مدينة ايدن: مطبعة بريل.

15- حسن علي حسن،(1980). الحضارة الإسلامية في بلاد المغرب والأندلس(عصر المرابطين والموحدين). القاهرة: مكتبة الخانجي.

16- حسين مؤنس،(2000). نصوص سياسية عن فترة الإنتقال من المرابطين إلى الموحدين. القاهرة: مكتبة الثقافة الدينية.

17- حمدي عبد المنعم، (1977). التاريخ السياسي والحضاري للمغرب والأندلس في عصر المرابطين. القاهرة: دار المعرفة الجامعية.

18- سالم عبد العزيز، (1997). قرطبة حاضرة الخلافة في الأندلس . القاهرة: مؤسسة شباب الجامعة.

19- سالم محمد غومة، (2003-2004). تطور المؤسسة العسكرية في دولتي المرابطين والموحدين من(451 .668هـ/1059 .1269م). ماجستير غير منشورة لنيل شهادة الماجستير في (التاريخ)، جامعة الفاتح، طرابلس، ليبيا.

20- عبد الواحد المراكشي،(1881). المعجب في تلخيص أخبار المغرب، ليدن: مطبعة بريل.

21- عصام الدين عبد الرؤوف الفقي، (1990). تاريخ المغرب والأندلس. القاهرة: المطبعة التجارية الحديثة.

22- عصمت عبد اللطيف دندش،(1988). دور المرابطين في نشر الإسلام في غرب إفريقيا. بيروت: دار الغرب الإسلامي.

23- عصمت عبد اللطيف دندش،(1988). الأندلس في نهاية المرابطين ومستهل الموحدين. بيروت: دار الغرب الإسلامي.

24- لسان الدين بن الخطيب،(د.ت). الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية . تونس: مطبعة التقدم الإسلامية.

25- محمود علي مكي، (1959-1960). وثائق تاريخية جديدة عن عصر المرابطين. مدريد: المعهد المصري للدراسات الإسلامية.